السبر والتقسيم في القرآن "المرحلة المكية نموذجا"

The sounding and division in the Qur'an "the Meccan stage as a model"

خالد عثمان حمدامين، طالب دكتوراه في جامعة وان يوزنجوبيل– تركيا

kahldkurd@yahoo.com

علي رفيق سعيد، طالب دكتوراه في جامعة وان يوزنجوبيل– تركيا

شكر أسكندر صالح، طالب دكتوراه في جامعة وان يوزنجوبيل– تركيا

المخلص: من المنهاج العقلي المستخدم في القرآن الكريم منهج "السبر والتقسيم"، القائم على حصر سائر الأوصاف المحتملة للتعليل واختبارها، بإلغاء ما لم تتحقق فيه شروط التعليل واستبقاء الصالح ليتعين علة، اعتمادا على دليل في حالتي الإلغاء والتعين، وقد ضرب الله سبحانه لنا في القرآن العظيم، هذا الأسلوب خاصة في المرحلة المكية لإثبات وبيان، حقائق الإيمان كتوحيد الله، واليوم الآخر، ولتفنيد حجج المعارضين المعاندين، للوحي، ورسول الله ε تارة أخرى.

فكانت الرغبة في تناول الموضوع في هذه المرحلة؛ لأنَّه قد تكرر وروده في الكتاب المبين، وتناولنا فيه مجالات التي أُستُعمل فيها هذا المنهج لمخاطبة المشركين وإفحامهم، والكيفية التي كان يدير بها الحوار معهم، للخلوص بالنتائج الدامغة.

وقد عرضنا بعض نماذج مختارة في القرآن المكي، مع آراء المفسرين والعلماء في هذه المسألة لإيضاح معانيه أكثر، واستجلاء مضامينه، ورد شبهات المخالفين، بالحجج والبراهين.

الكلمات المفتاحية: السبر، التقسيم، القرآن، المكية، نموذج.

Abstract

The sounding and division in the Qur'an "the Meccan stage as a model"

Among the rational method used in the Holy Qur'an is the "sounding and division" approach, which is the division of a thing and the extraction of

its essence, and the Almighty used it in the Holy Qur'an, especially in the Meccan stage to prove the facts of faith such as the oneness of Allah, the Messengers, belief in the day of judgment. On the other hand to refute the arguments of the stubborn opponents of the revelation and the Messenger of Allah, May Allah bless him.

The desire to elaborate the topic at this stage was; because it has been repeated and mentioned in the Holy Qur'an, Furthermore; it has dealt with the areas in which the Almighty used this method in addressing the polytheists and convince them, and the way in which he conducted the dialogue with them in order to extract the final results.

We have dealt with some selected models at that stage, and even we have presented the views of the interpreters and scholars on this issue to shed light on the meanings in the wise remembrance, to clarify the contents of the Holy Qur'an, and to respond the suspicions of the violators with arguments and proofs.

Key Words: sounding، division Qur'an ،Meccan ، model.

المقدمة

وقد تنوعت منهاج القرآن الكريم لدعوة إلى توحيد الله بشتى الأساليب، ورد على المخالفين بالأدلة والبراهين، ومن تلك المناهج المستخدمة في كتابه العزيز "السبر والتقسيم" وهو: أسلوب يكون في حصر الأوصاف التي يحتمل كونها علة في عدد، وإلغاء ماعدا واحدا منها، وهو المستبقي، وقد ورد في القرآن الكريم هذا المنهج، وخاصة السور والآيات المكية، وهي التي تهتم بجانب الإيمان بالله وتوحيده، وبيان ما يعبدون من دون الله.

مشكلة البحث وأسئلته

تتلخص مشكلة البحث فيما يلي:

1. ما هو "السبر والتقسيم" في القرآن الكريم؟
2. وما هي الأمثلة على الآيات الدالة، على السبر والتقسيم، في القرآن المكي؟

أهداف البحث:

بناء على ما تقدم في مشكلة البحث تشكلت مجموعة من الأهداف والغايات التي يمكن أن تسهم في توضيح هذه الأهداف:

1. فهم احدى أساليب القرآن الكريم، من خلال هذا المنهج العقلي.
2. بيان عقيدة المشركين، وابطال شركهم، وعبادتهم للأصنام.
3. افحام الكافرين، بالأدلة والبراهين.
4. الدعوة إلى توحيد الله، الذي هو غاية الأسمى في حياة الأنبياء، والرسل والمؤمنين.

أهمية البحث:

أهمية هذا البحث تكون في دراسة القرآن الكريم، في أساليبه، ومناهجه الجدلية، والعقلية، لبيان ومخاطبة المشركين، والدعوة إلى عقيدة التوحيد، وأَنه لا حجة للمشركين ولا برهان لهم في شركهم، بالله سبحانه.

منهج البحث:

سيكون منهج البحث عرض وتحليل ومقارنة بين الشواهد والنماذج القرآنية، وبيان منهج "السبر والتقسيم في تلك الآيات الكريمة في القرآن، وتناول آراء العلماء والمفسرين، في هذا الموضوع، وتحليلها، وتفسيرها، بشكل وافي.

المبحث الأول

مفهوم السبر والتقسيم

من المنهاج العقلي الذي سلكه القرآن السبر والتقسيم، لتثبيت دعائم العقيدة في المرحلة المكية، في مخاطبة العقول وإقناعها، وفي الرد على الخصوم وإفحام مجادليه، وهنا نعرض بعض النماذج لبيان هذا المنهج في القرآن الكريم.

المطلب الأول

تعريف السبر والتقسيم

أولاً: معنى السبر

السبر لغة: اختبار الشيء واستخراج كنهه، يقال: أسبر لي ما عنده، أي: أعلمه، ومنه المسبار، آلة اختبار الجرح ليقتص بمثله. (مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، و محمد النجار،487/11)

ومعناه أيضاً: التجربة والاختبار، سبر الشيء سيرا حزره وخبره، وسُمِّي ما يعرف به طول الجرح سيارا ومسبارا. (الإسنوي، 11،487/1999).

واصطلاحًا: اختبار الوصف هل يصلح للعلّيّة أم لا، وينتج عن ذلك إبطال الباطل منها واختيار الصالح، وهو يتركب من أصلين:

الأول: حصر أوصاف المحل، وهذا هو التقسيم.

الثاني: اختبار تلك الأوصاف، لإبطال الباطل منها وإبقاء الصحيح وهذا هو السبر.(الإسنوي، 1999، 334)(أحمد،1993، 173)

ثانياً: معنى التقسيم

لغة: فقد جاء معناه في معاجم اللغة وعرفوه بأنَّه هو: تجزئة الشيء، بأن يقال: الشيء إما كذا وإما كذا.(الزبيدي ،267/22)

اصطلاحا: وقد تنوعت عبارات العلماء في تعريفه بسبب تنوُّع الفنون التي استعملت فيه، وحسب ما يعرفه صاحب التعريف، وحسب مجال تطبيقه، فإنّ هذا الإستدلال أي: "السبر والتقسيم" يحصل من العلم بأحوال الشيء وملزومها ولوازمها، وإذا تصورته الفطرة عبرت عنه بأنواع من العبارات، وصورته في أنواع من صور الأدلة، لا يختص شيء من ذلك بصورة معينة، أو طريقة محددة. (ابن تيمية، 206)

فالتَّقسيم في اصطلاح الأصوليين: هو حصر الأوصاف الموجودة في الأصل التي يظنّ صلاحيتها للعلّة ابتداءً، فيقال: العلّة إمَّا كذا وإمَّا كذا.(مصطفى، 413/1)

المطلب الثاني

بيان ربوبية الله وألوهيته

هذا الأسلوب في المرحلة المكية قد كثر عرضها، بسبب دعوة مشركي، قريش إلى الإيمان بالله، وإبطال ما يدعون إليه، وتثبيت توحيد الألوهية الله، وربوبية I : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾{الطور، 36/52}، وهذه الآية هنا في مقام إثبات الربوبية، وتوحيد الألوهية، فالله سبحانه هو الذي خلقهم وأنشأهم، بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا، وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له، ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك.(ابن كثير، 1219هـ،217/7)؛ "لأن نفي الصانع، إما أن يكون بنفي كون العالم مخلوقا فلا يكون ممكنا، وإما أن يكون ممكنا؛ لكن الممكن لا يكون محتاجا، فيقع الممكن من غير مؤثر وكلاهما محال. وأما قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ فمعناه أهم الخالقون للخلق فيعجز الخالق بكثرة العمل، فإن دأب الإنسان أنه يعيا بالخلق، فما قولهم أما خلقوا فلا يثبت لهم إله البتة". (الرازي، 1420هـ، 217/28)

والنتيجة الحاصلة من ذلك لا يخلو الأمر من واحدة من ثلاث حالات، بالتقسيم الصحيح:

الأولى: أن يكونوا خلقوا من غير شيء بدون خالق أصلاً.

الثانية: أن يكونوا خلقوا أنفسهم.

الثالثة: أن يكون خلقهم خالق غير أنفسهم.

ولا شك أنَّ القسمين الأولين باطلان، وبطلانهما ضروري كما ترى، فلا حاجة إلى إقامة الدليل عليه لوضوحه، والدليل الأخير هو الحق الذي لاشك فيه، وهو جلاَّ وعلا خالقهم المستحق منهم أن يعبدوه وحده سبحانه.(الشنقيطي، 1995م، 494/3)؛ لأنَّه تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾{الحديد،3/57}. فإذ الوجهان بطلان، يكون حجة عليهم، بأنَّ لهم خالقا فليؤمنوا به وليوحدوه وليعبدوه، وهو توحيد الله تعالى وقدرته على البعث، وأن الله هو خالقهم، وخالق السموات والأرض، فليؤمنوا به، وليوقنوا أنه ربهم وخالقهم. (الخازن، 1399هـ، 201/4)

فعند السبر العقلي تبطل كل الإحتمالات التي تفترض إلها غير الله؛ ويبقى الإحتمال الحق الأوحد، وهو إثبات ربوبية الله سبحانه وتفرّده بذلك، وهو ما يستلزم عبادته والخضوع له I.، ولذا أعجب به جبير بن مطعم القرشي حين سمع هذا البرهان العقلي المتين، في شرحه في أوجز عبارة، في صلاة المغرب قال: "كاد قلبي أن يطير"، (البخاري، 1422هـ، 4854) وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة، من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك".(ابن كثير، 1219هـ، 406/7)

"ووجه تعلق الآية بما قبلها؟ لما كذبوا النبي ε ونسبوه إلى الكهانة والجنون والشعر وبرأه الله من ذلك، ذكر الدليل على صدقه إبطالا لتكذيبهم وبدأ بأنفسهم، كأنه يقول كيف يكذبونه وفي أنفسهم دليل صدقه؛ لأن قوله في ثلاثة أشياء، في التوحيد، والحشر، والرسالة ففي أنفسهم ما يعلم به صدقه وبيانه هو أنهم خلقوا وذلك دليل توحيده سبحانه". (الرازي، 28،1420/216) وهو برهان ودليل على أنَّ الله خلقهم، وخلق السموات والأرض، ولو أيقنوا به لما أعرضوا عن عبادته، (المظهري، 1412هـ،99/9)

وهذه الآيات تسدّ جميع الطرق بوجه المخالفين فلا تدع لهم مهرباً في عبارات موجزة ومؤثّرة جدّاً بحيث ينحني الإنسان لها من دون اختياره إعظاماً ويعترف ويقرّ بإنسجامها وعظمتها. (الشيرازي، 2013م، 188/17)

المطلب الثالث

تسفيه آلهة المشركين

فالله سبحانه وتعالى تطلق نداء كبير يا محمد ادعوا هؤلاء الشركاء ليقدموا ما عندهم من إمكانات ومعطياتٍ وسترى أنهم لا يقدّمون شيئاً، أيّ شيءٍ، لعجزهم عن ذلك، لأنَّ الشركة في الربوبية لا تصلح ولا تجوز، ثم وصف الذين يدعون من دون الله، الذين لا يملكون شيئا، فكيف يكون إلها من كان كذلك وأنَّ منح حقوق الإلهية لشيء ما لا يكون في الأصل إلا لما يتصرّف

في النفع والضر، سواء كانت بيده جميع مفاتيح النفع والضر، أو كان يملك بعض منافذها، والله نفى أن يكون لما يُعبد من دونه أيُّ باب من أبواب النفع أو الضر، "لا يملك آلهتهم مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض؛ من الشر والخير، ولا من النفع والضر، فكيف يكون إلهًا من كان كذلك". (الطبري، 200م، 394/20)

إذن التقسيم هنا في هذه الآيات جاء على أربعة أمور هي: الربوبية استقلالًا، والشركة في الربوبية، والمعونة على الربوبية، والشفاعة عند الرب.(الأركاني، 2018م، 8): قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ، وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾{سبأ،23/34}.

فالله سبحانه وتعالى، لا يفلح المشركين وحسابهم عنده عظيم: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾،{المؤمنون،117/23}

وعند سبرها يظهر جليًّا أنه ليس في واحدة منها متمسَّك، فأما الأولى: فليس لهم أي نوع من أنواع الملك الاستقلالي، وأما الثانية: فالله لا شريك له سبحانه وتعالى في ربوبيته، وأما الثالثة: فالله سبحانه وتعالى له كمال القدرة والقوة، فلا معين له ولا نصير ولا ظهير، وأما الشفاعة فإنها لا تكون إلا بإذنه سبحانه "والله لا يأذن لأحد من أوليائه في الشفاعة لأحد من الكفرة به، وأنتم أهل كفر به أيها المشركون، فكيف تعبدون من تعبدونه من دون الله زعما منكم أنكم تعبدونه ليقربكم إلى الله زلفى وليشفع لكم عند ربكم". (الطبري، 2000م، 395/20)

المبحث الثاني

نماذج من السبر والتقسيم في القرآن

المطلب الأول

الدعاء والطلب من دون الله

ومن الآيات التي سلكت منهج العقلي: الطلب والدعاء من دون الله؛ لأن الدعاء من أهم قضايا العبادة، فدوافع الداعي إلى دعائه لا تخرج عن أمور؛ كاستحقاق المدعو وكماله وجلاله، أو استجابته لذلك الدعاء سواء في الدنيا أو في الآخرة، ولا دافع بعد هذه الدوافع. (الأركاني، 2018م،11).

كما قال تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ، إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾{فاطر،14/35}. ويوم القيامة الكفار حين يدعون الأصنام، لا يسمعوا دعاءهم ولو سمعوا لم يستجيبوا لهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم، يتبرؤون منكم ومن عبادتكم إياها، ويقولون: ما كنتم إيانا تعبدون. ولا ينبئك مثل خبير، يعني نفسه أي لا ينبئك أحد مثلي خبير عالم بالأشياء. (البغوي، 693/3)

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة الآلهة التي اتخذوها الكفار. لا تستطيع نصر أنفسها، فكيف تنفع غيرها، جاء مبينا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ، وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾{الاعراف،195/7} إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن تلك الآلهة المعبودة من دون الله ليس فيها نفع. (الشنقيطي، 1995م، 155/4)

واستعمال حجة السبر والتقسيم في هذه الآية ظاهرة، فأما التقسيم لا تخلو الأمور الدافعة إلى الدعاء من أحد ثلاثة، وهي: كمال المدعو في الربوبية، امتلاك المدعو استجابة الدعاء في

الدنيا، امتلاك المدعو استجابة الدعاء في الآخرة (الأركاني، 2018م، 9). فلا يبقى للإنسان إلاَّ أن يدعوا الله I؛ لأنه هو المجيب، والفارج كروب المكروبين.

المطلب الثاني

يوم البعث والنشور

وقد ضرب لنا سبحانه وتعالى هذه المنهج، في الإيمان باليوم الأخر، حين كذَّب قريش محمد ε، وعلى رأسهم العاص بن وائل ونزلت الآية في حقه، حيث قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا، أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا، كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا، وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾{مريم،80/18}.

وذلك أنّه كان عليه دين لخباب بن الأرت τ، فطلب منه قضاء الدين، فأبى ذلك وقال والله: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد فقال الخباب: "لا أكفر بمحمد ε حتى يميتك الله، ثم يحييك"، قال: إذا أماتني الله ثم بعثني ولي مال وولد، فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا، أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾{مريم،80/18}. (البخاري، 1422هـ، 4732)

فأما التقسيم والحصر، مستند إلى العاص في دعواه تلك إمَّا أن يكون هو اطلاعه على اللوح المحفوظ وعلمه الغيب، وإمَّا أن يكون بموجبِ عهدٍ أعطاه إياه مالك يوم الدين، ومن له الحكم في الأولى والآخرة، وإما أن يكون بهتًا وافتراء وقولًا بلا علم، هذه هي الحالات الثلاث، ولا رابع لها. (الأركاني، 2018م،9)

ففي هذه الآية الكريمة يحصر أوصاف المحل في ثلاثة، والسبر الصحيح يبطل اثنين منها ويصحح الثالث، وبذلك يتم إلقام العاص بن وائل الحجر في دعواه أنه يؤتى يوم القيامة مالا وولدا. (الشنقيطي، 1995م3/ 91)

أما وجه حصر أوصاف المحل في ثلاثة: قولك أنك تؤتى مالا وولدا يوم القيامة، لا يخلو مستندك فيه من واحد من ثلاثة أشياء:

الأول: أن تكون اطلعت على الغيب، وعلمت أن إيتاءك المال والولد يوم القيامة مما كتبه الله في اللوح المحفوظ.

والثاني: أن يكون الله أعطاك عهدا بذلك، فإنه إن أعطاك عهدا لن يخلفه.

الثالث: أن تكون قلت ذلك افتراء على الله من غير عهد ولا اطلاع غيب.

وقد ذكر تعالى القسمين الأولين في قوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾{مريم،80/18}.مبطلا لهما بأداة الإنكار، ولا شك أن كلا القسمين باطل; لأن العاص المذكور لم يطلع الغيب، ولم يتخذ عند الرحمن عهدا، فتعين القسم الثالث، وهو أنه قال ذلك افتراء على الله، وقد أشار تعالى إلى هذا القسم الذي هو الواقع بحرف الزجر والردع، وهو قوله: كلا، أي: لأنه يلزمه ليس الأمر كذلك، لم يطلع الغيب، ولم يتخذ عند الرحمن عهدا، بل قال ذلك افتراء على الله; لأنه لو كان أحدهما حاصلا، لم يستوجب الردع عن مقالته كما ترى، وهذا الدليل الذي أبطل به دعواه. (الشنقيطي، 1995م، 91/3)

و بهذه الاحتمالات يستعملها القرآن في إبطال الافتراءات التي يتزعمها الكذابون فيما يتعلق بيوم الأخر، فقد زعم اليهود أنهم لن يمكثوا في النار سوى أيام معدودة إذا دخلوها في الحياة الآخرة، ثم يخرجون منها، فناقشهم القرآن الكريم، في هذه الدعوى وأبطلها بطريقة السبر والتقسيم. (الأركاني، 2018م،11)

كانت تلك الآية في نقض كل حجة للمشركين بالله سبحانه، في عبادته، فالله لا شريك له I في ربوبيته وألوهيته والنتيجة من ذلك كيف تعبدون من دون الله وهو ضعيف لا يملك شيئا.

المطلب الثالث

في النبوة محمد ε

وهذا تقرير لما سبق من كونه وحيا على سبيل التهكم فبيان القصص منه ε على ما هو الواقع المعلوم عدل أهل العلم بالأخبار معجزة له ε ودليل قطعي على كونه نبيا وكون ما يتلو عليهم وحيا من الله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾{آل عمران، 44/3}.

وتنزيل هذا التقرير على هذا المقام أن يقال: إنكم أيها المؤمنون تقولون: إن يعقوب حين احتضر وصى بنيه بالتوحيد والإسلام، وهو حق وصدق، ولكن ما علمتم ذلك من طريق استدلال، ولا قراءة كتاب، ولا تعليم معلم، ولا كنتم حاضرين حين احتضر ووصى بالتوحيد، فلم يبق إلا طريق الوحي. (الطيبي، 2013م، 107/3)

إذ يقول الرازي (ت: 606هـ): "فإن قيل: لم نفيت هذه المشاهدة وانتقاؤها معلوم بغير شبهة، وترك نفي استماع هذه الأشياء من حفاظها وهو موهوم؟ قلنا: كان معلوما عندهم علما يقينيا أنه ليس من أهل السماع والقراءة، وكانوا منكرين للوحي، فلم يبق إلا المشاهدة، وهي وإن كانت في غاية الاستبعاد إلا أنها نفيت على سبيل التهكم- عبث بنا- بالمنكرين للوحي مع علمهم بأنه لا سماع ولا قراءة. (الرازي، 1420، 219/8)، واستدل على ذلك أيضا بعدد من الآيات منها: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾{هود،49/11}،﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا﴾{يوسف102/12}.

وقد كان هذا الأسلوب من باب التقسيم الحاصر، "هذا تهكم بقريش وبمن كذبه؛ لأنه لم يخف على أحد من المكذبين أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحداً ولا سمع منه، ولم يكن من علم قومه، فإذا أخبر به وقصه هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته، لم يقع شبهة في أنه ليس منه وأنه من جهة الوحي"(الطيبي، 2013م،3 /106)ومضمونُ الكلامِ تصديقٌ لنبوته ε، وأنّ ما جاء به هو وحيٌ مِن عند الله. (عمار،2017، 565)

وقد تكرر هذا المنهج في القرآن العظيم، وذكرت بعض الأمثلة المتعلقة بدراستنا في المرحلة المكية، والسيوطي(ت:911هـ) في كتابه الإتقان ذكر جدلا واحدا للسبر والتقسيم، مستدلا بهذه

الآية الكريمة: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾{الانعام،143/6} وفي دراستي لم أتعرض لهذه الآية؛ وقد ذكره علماء آخرين من المفسرين وغيرهم، وأسهبوا في هذا الموضوع كثيرا، وقد سلك القرآن في مجادلاته سياسة جدلية بيانية، يعالج به أوضاع الخصوم، ويناقشهم بما يتناسب مع أحوالهم في مقام المجادلة، فهو يحكي لنا حال رسول الله ε مع قومه، ويقيم عليهم نقاش فكري حول إبطال عبادة الأصنام والأوثان، بطريقة التسفيه والتنقيص من معبوداتهم, بشتى المنهاج، بطريقة توجه العقول والإدراك لفهم أعمق وأشمل.

"وللقرآن الكريم طريقة في أسلوبه، تعتمد على تلوين الخطاب، وتلوين الحوادث، وتنويع الأخبار، والشخوص والمعالم، للتتلقاه العقول السليمة اليقظة متدبرة وتتلقاه القلوب وجلة راجية، فتراه يرادف الترهيب بالترغيب، والوعد بالوعيد، تسكيناً لنفوس المؤمنين؛ ليطمئنوا إلى رضاء الله ورحمته، وإزعاجاً للملاحدة المعاندين؛ ليثوبوا إلى عقولهم فيطرقوا أبواب النظر اتقاء عذاب الله وسخطه."(عرجون، 299،1989)

والمظهر العام للجدل القرآني هو المعاملة مع الخصوم، بما يتناسب مع أحوالهم العقلية، والاعتقادية، فكثيرا ما نرى مجادلة القرآن مع المشركين جدل هداية وبيان طريق الحق، وقد ناقش المشركين، في عبادتهم للأصنام مناقشة هادئة، رغم وجود هذه المجادلة على التحدي والإفحام والإلزام، كما ذكرنا.

الخاتمة

ومن خلال دراستنا هذه توصلنا إلى عدة أمور نجملها فيما يلي:

تبين للباحثين أنَّ القرآن العزيز، قد استخدم المناهج شتى لدعوة الناس إلى الإيمان بالله، واليوم الآخر وتوحيده، ومن ضمن المناهج المتبعة في القرآن الكريم، منهج العقلي" السبرو التقسيم"، وهو اختبار الشيء واستخراج كنهه، ومعناه: التجربة والاختبار.

1. ففي المرحلة المكية كان المنهج العقلي أكثر من المرحلة المدنية وذلك لدعوة قريش إلى الإيمان بالله ونبذ الشرك، وحتى مشركي قريش كانوا متأثرين كثيرا بأسلوب القرآن وعرض قضاياه، حينما كانوا يسمعون البرهان العقلي المتين في شرح قضاياه في أوجز العبارة وأبلغها.
2. هذا المنهج العقلي المتبع في القرآن الكريم قد أستخدمه سبحانه وتعالى، واستنبطه المفسرون في شرح آياته، كأمثال الرازي في تفسيره، والسيوطي في كتابه الإتقان، والشنقيطي في تفسيره وغيره من العلماء لبيان واستجلاء مضامين آيات القرآن العظيم.
3. في الآيات التي عرضنا للتطبيق المنهج العقلي للسبر والتقسيم في القرآن الكريم تسد جميع الطرق بوجه المخالفين، فلا تدع لهم مهربا، فهي عبارات موجزة ومؤثرة جداً بحيث ينحني الإنسان لها دون إختياره ويعترف ويقرُّ بإنسجامها وعظمتها.
4. هذا المنهج في القرآن الكريم تارة يستخدم في تسفيه آلهة المشركين، وتارة لبيان توحيد الله، والإيمان بالرسل والأنبياء، وتارة لعرض الإيمان بالله واليوم الآخر.

لذلك دليل السبر والتقسيم، قد تكرر وروده في القرآن العزيز، وقد ذكرنا بعض الأمثلة المتعلقة ببحثنا هذا، في المرحلة المكية بشكل مقتضب، والموضوع يحتاج إلى دراسة أشمل وأكثر، مستدلا بآراء المفسرين والعلماء والدارسين في ذلك الحقل.

المراجع

إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، و محمد النجار. (بلا تاريخ). *المعجم الوسيط*. الإسكندرية: دار الدعوة.

أبو الفداء إسماعيل ابن كثير. (1219هـ). *تفسير القرآن العظيم*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي. (1420). *مفاتيح الغيب" التفسير الكبير"* ط: الثالثة. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

أبو محمد الحسين بن مسعود بن الفراء البغوي. (بلا تاريخ). *معالم التنزيل في تفسير القرآن*. بيروت: دار احياء التراث العربي.

أحمد عبد اللطيف. (1993). *منهج إمام الحرمين في دراسة العقيدة، عرض ونقد*. الرياض: مركز ملك فيصل للبحوث والدراسات.

تقي الدين أبو العباس ابن تيمية. (بلا تاريخ). *الرد على المنطقيين*. بيروت: دار المعرفة.

شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي. (2013م). *فتوح الغيب في الكشف عن قناع، تح: ياد محمد الغوج، ط: الأولى*. أبو ظبي: مصرف أبو ظبي الإسلامي.

عباس اسماعيل عمار. (تشرين أول, 2017). السبر والتقسيم عند الإمام الرازي في تفسيره. *مجلة التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل*.

عبد الرحيم بن الحسن الإسنوي. (1999). *نهاية السول شرح منهاج الوصول*. بيروت: العلمية.

علاء الدين بن محمد بن إبراهيم الخازن. (1399هـ). *لباب التأويل في معاني التنزيل*. بيروت: دار الفكر.

عمار بن محمد الأركاني. (23 يوليو, 2018م). *السلف والمهارات العقلية" السبر والتقسيم أنموذجا"*. مركز السلف للبحوث والدرسات.

محمد بن جرير بن يزيد الطبري. (200م). *جامع البيان في تأويل القرآن، تح: أحمد محمد شاكر*، ط: الأولى. بيروت: مؤسسة الرسالة.

محمد ابن اسماعيل أبو عبد الله البخاري. (1422هـ). *صحيح البخاري، تح: محمد زهير* ط: الأولى. بيروت: دار طوق النجاة.

محمد الأمين بن المختار بن عبد القادر الشنقيطي. (1995م). *أضواء البيان في إيصح القرآن بالقرآن*. بيروت: دار الفكر.

محمد الصادق عرجون. (1989). *القرآن العظيم هدايته واعجازه في أقول المفسرين، ط: الاولى*. دار القلم: دمشق.

محمد بن محمد الزبيدي. (بلا تاريخ). *تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مجموعة من المحققين*. القاهرة: الهدية.

محمد ثناء الله غلام نبي التونسي المظهري. (1412هـ). *التفسير المظهري*، ط: الأولى، باكستان: مكتبة الرشدية.

ناصر مكارم الشيرازي. (2013م). *الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل*، ط: الأولى. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.